غربة الانسان العربي

أ. مريم الهاشمي

ساتحدث عن غربة الانسان العربي وساقوم بطرح الانسان الاندلسي والبغدادي انموذجا لما مر به من احداث ونكسات . وسالقي النظر علي غربة الزمان والمكان والانسان .

يقول ابن منظور في مادة (غ ر ب) :

« .... والغَرْبُ : الذهاب والتنحي عن الناس . وقد غرب يغرُب غربا . وغرب ، وأغر ب وغربه ، وأَغْرَبَهُ : نحاه . وفي الحديث : أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بتغريب الزاني إذا لم يُحصن . وهو نفيه عن بلده . والتغريب : النفي عن البلد . التغرب : البُعد . والغُربة والغُرْب : النزوح عن الوطن والاغتراب .

والغربة بهذا المعنى : مادية ومعنوية ، وكلتاها تعطي الغريب الإحساس بالوحدة والحزن وألم الفراق .

ويبدو أن الغربة عاشت مع الإنسان منذ بداية حياته فهو منذ جاء الأرض وهو حمل بين جوانحه ضروبا من الإحساس بالغربة حتى تلونت قطاعات عريضة من أدبه بهذا الإحساس .

وفي الحياة العربية وجدت دواع كثيرة للغربة والاغتراب ، فقد كان القلق يسيطر على الإنسان العربي ، ولذلك نرى في مطالع القصيدة الجاهلية في كثير من الأحيان حديثا عن الأطلال - بقايا وطنه المهجور – وإحساسا بالغربة بعد الأنس ، وحنينا طويلا إلى ديار أحبابه الراحلين ، وقد عرف الإنسان القديم ضروبا من الغربة ، عبر عنها الشعر ، وقد أسهمت الطبيعة وأسلوب الحياة والنظام القبلي والتنقل الدائم في تحديد غربته .إما أن يختارها وإما أن تكون مفروضة عليه .(١)

غربة الذات :

تواجه الفرد في رحلة الحياة عقبات ومصاعب ، تتطلب تجاوزها ، برفع مستوى حافزية الذات ، ودافعيتها للحياة والعمل والعطاء ، فيتم تجاهلها ، والمضي مع حركة الكون نشاطاً ومثابرة ؛ لأن الحياة ليست على نسق واحد ، ففيها من المتاعب والآلام ، وإنها تتطلب نفوساً قوية ، ومعنويات عالية ، وهمة متقدة وأملاً ، ولذلك ففي غياب تلك المعاني أو بعضها ، هو الذي يوصل الذات إلى حد الانهزام أمام الحياة ؛ ومن هنا فإن الإحباط حالة انفعالية غير سارة قوامها الشعور بالفشل وخيبة الأمل تتضمن إدراك الفرد لوجود عقبات تحول دون وصوله لحاجاته ،وبناءً عليه فإن تداعيات الشعور بالخيبة تؤدي إلى ارتداد الشخص نحو ذاته والانسحاب من المجتمع والحياة حيث يميل الإنسان إلى اجترار الهموم وتقبل أفكار الخيبة والفشل، وينحدر إلى درجة كراهية الذات ولوم النفس ومحاسبتها وتحميلها مسؤولية الفشل. إن الذات عند الشاعرين مرت بظروف محبطات أثناء أحداث وتداعيات مهمة جداً في حياة كل منهما ، ولهذا جاء الإحساس بالخيبة والفشل في أمر ربما لم يكن لهما دخل فيه ، ولكنها الحمية والغيرة على الوطن والدين هي التي تجعل الإنسان يحس بالآخرين ، ويتجرع مثلهم الألم والحسرة ، ويحس بالمسؤولية اتجاههم ، ويحاول أن يساعدهم على شق طريقهم من جديد ، فهذه هي مبادئ ديننا الحنيف ، ولكن جاءت الرياح بما لا تشتهي نفوس الجميع ، وأخذت الذات تحس بإحباط وغربة شديدتين ، وهذا مما نراه واضحاً من خلال أبيات الشاعرين .

ونرى هذه الخيبة والقلق والغربة في قصيدة الرندي في مثل قوله

يمزق الدهر حتما كلَ سابغة
إذا نبت مشرفيات وخرصـــان
أتى على الكل أمر لا مرد له
حتى قضوا فكان القوم ما كانـوا
وصار ما كان من مُلك ومَلك
كما حكى عن خيال الطيف وسْنانُ
تلك المصيبة أنست ما تقدمها
ومالها مع طول الدهر نسيـــان

يا رب أم وطفل حيل بينهما
كما تفرق أرواح وأبـــدان
لمثل هذا يذوب الإنسان من كمد
إن كان في القلب إسلام وإيمـان

نلاحظ غربة الذات وتمزقها وقلقها في أبيات الشاعر فبدأها متشائماً منكسراً بأن الموت آت لامحالة ، ، ومن لم يقتل في الحرب مات بانقضاء أجله ، فذكر الموت الذي هو من علم الغيب ،يوحي بخوف وترقب حيث إن الإنسان دائم التوجس لما هو مجهول ، وانقضاء الأجل بهذه الصورة يوحي بغربة مع الذات المضطربة التي أصبحت غير متزنة ، ضائعة بين سراديب القلق والخوف والألم والخيبة . وهنا يأتي بصورة معبرة عن مدى الغربة التي تعانيها الذات ، والعبارات تؤكد بقوة وحضور عن ذلك : يمزق الدهر / أمر لا مرد له / المصيبة / مالها على طول الدهر نسيان / حيل بينهما / تفرق أرواح وأبدان / يذوب الإنسان من كمد ، كلها عبارات تدل على العجز في مواجهة الأمر ،وتوحي بالعجز عن النسيان ، وبأن المصيبة قد مزقت الأرواح والذوات ، وجعلت للهم والحزن الذي لا يستطاع إمضاؤه مقراً في القلب ، حتى حيل بين الأرواح والأبدان التي فيها مستقر وسكينة لها .

ونرى أن هذه الغربة عن الذات لا يستطيع الإنسان تحاشيها أو البعد عنها ، وقد يصح أن نقول هنا إن الزمن بدورته القاسية إلى الأمام ، هو الذي صنع هذه الغربة ، ولا نقصد هنا الزمن بمفهومه المجرد ، وإنما مجمل المتغيرات التي حدثت .(١)

ونقصد بالمتغيرات هنا المصيبة التي أنست ما تقدمها ، وضياع الذوات وغربتها في ظل هذا المتغير .ونراه يذكر الطفل الذي حيل بينه وبين أمه ، وهذا الفراق هو فراق عن الأمان والاستقرار والإحساس بالحب والرعاية ،التي هي من الأمور المهمة لاتزان الذات البشرية، فجاء الاضطراب والخوف والغربة من هذا الفراق ،والغربة الأكبر هو فراق الوطن .

وعند فراق الوطن يُفتقد إلى من يؤمن حاجات الذات الأساسية ، فينمو بذلك الإحساس بالغربة في ذاته .

وعند ذلك يفتقد الإحساس بالرضا والفخر فيفتقد المغزى الذاتي للإنسان فيغترب عن نفسه .(٢)

وغربة الذات حاضرة عند سعدي كما كانت عند صاحبه الرندي ، وكيف لا وكلاهما تجرع من نفس السم ، ويذوق من عين الكأس ، وكلاهما وقف حائراً مشدوهاً أمام منظر يذهب العقل ويغطي القلب طبقة سوداء كلها كآبة وخيبة تجعل الذات تهيم متخبطة حائرة لا تقوى على الثبات ولا تتعرف حتى على نفسها .

نسيم صبا بغداد بعد خرابهـا
تمنيت لو كانت تمر على قبـري
لأنَّ هلاك النفس عند أولي النهى
أحبُ إليهم من عَيش منقبض الصدرِ
مررتُ بصم الراسيات أجوُبها
كخنساءَ من فرط البكاء على صخر
لقد كان فكري قبلَ ذلكَ مائزاً
فأحدث أمرٌ لا يحيط به فكري
وبين صرف الزمان وحُكمه
مغللة أيدي الكياسة والخُبر
وحرقة قلبي هيجتني لنشرها
كما فعلت نار المجامر بالعطر
سطرتُ ولولا غض عيني على البكا
لرقرق دمعي حسرة فمحا سطري
أحدثُ أخباراً يضيق بها صدري
وأحمل آصاراً ينوء بها ظهري
وربُ الحجى لا يطمئن بعيشة
فلا خير في وصل يردف بالهجر

غربة الذات واضحة عند سعدي في موته وفي حياته ، فما أشد غربةً للذات من هذه الغربة ، الموت وهو المجهول الذي احتارت العقول في ماهيته ، والذي يمكن أن يباغتنا في أي وقت وأي مكان وأية ساعة ، هي مشاعر غربة كانت مستحوذة على الشاعر ،ونراه في موضع آخر يبين غربة الذات في حنينها إلى الماضي ، وتغير الدهر عليها فذكر أطلالاً كانت ، وأخذ يجوبها كما كانت الخنساء تبكي على أخيها صخر .

مررتُ بصم الراسيات أجوُبها
كخنساءَ من فرط البكاء على صخر

فالحنين إلى الماضي محاولة للانعتاق من وطأة الحاضر ، وهو غربة عن الواقع (الحاضر) ، فحين يشعر المرء أن حياته قد قست عليه فإنه يجد متنفساً بالهروب منها إلى الماضي لكي لا يحس المرء بثقل الحياة ومآسيها ، وربما يتذكر اللحظات الحزينة ليعمق حزنه باللحظة التي يحياها ، فيزيد حزنه حزناً ، وذكر الأطلال وما يخلفها من شعور بالغربة ، ورغبة في الانفصال عن الواقع ، وهو اتحاد بالماضي البعيد ، والحديث عن الديار له دلالة عميقة ،

يحاول به الشاعر أن يتحد بكل دقيقة من دقائق الماضي ، وأن يتصل بكل شيء فيه ، وأن كل دقيقة تذكره بقضية ، وأن الدافع الأساسي هو دافع ذاتي ، إذ ينفصل الإنسان عن لحظته وحياته الحاضرة ويتصل بالماضي بحثاً عن ملجأ له فيه ، و الحديث عنها تؤكد الغربة عن الذات .

وهذه الغربة فرضها عليه ما آل إليه الحال من تغير في ملامح البيئة والأحوال إلى أبشع صورة وأسوأ حال ، فعباراته :قبري / منقبض الصدر / فرط البكاء / لا يحيط به فكري / حرقة قلبي / غض عيني على البكا/ يضيق بها صدري / ينوء بها ظهري .

هذه تدل دلالة واضحة على غربة داخلية استحوذت على كيانه ووجدانه .

وبين صرف الزمان وحُكمه

مغللة أيدي الكياسة والخُبر

وشغل الدهر والزمان مساحة واسعة عند الشاعر ، فحمل في طياته الكوارث والنكبات ، ووقف ضعيفاً منكسراً ، مما يعزز إحساس الغربة لديه .

ونرى الحكمة ظاهرة عند الشاعر ، ولكنه اختار من الحكمة ما يبين بها غربته الداخلية ، وما فيها من تحطم وذل وحزن ومآسي .

لأنَّ هلاك النفس عند أولي النهى
أحبُ إليهم من عَيش منقبض الصدرِ
وربُ الحجى لا يطمئن بعيشة
فلا خير في وصل يردف بالهجر.

ولابد لنا من الإشارة إلى أن أشعار سعدي غلب عليها استعماله الأساليب الإنشائية والخبرية ، ليجذب من خلالها المتلقي ويدعوه إلى مشاركة وجدانية فيما يعبر عنه من أفكار وأحاسيس ومشاعر إنسانية ؛ ومشاطرة شعورية فيما يختلج في نفسه من آلام وأحزان تدمي قلبه وتعتصر روحه أو آمال وأماني تحمله إلى آفاق بعيدة رحبة ليحلق في سمائها الصافية ويرتوي من نبعها الفياض ، وليثير انتباهه إلى ما يوحي له من دلالات إيمائية ورموز إيحائية ،فضلاً عن معانيها اللغوية ، ولاشك أن لهذه الأساليب الخبرية والإنشائية إشارات ومعان تضفي على شعر سعدي وكلامه رونقاً ورواء ، وترفده بزخم كبير من القوة والتأثير مما يدعو المتلقي إلى مشاطرة الشاعر أحاسيسه ومشاعره .

وبين صرف الزمان وحُكمه

مغللة أيدي الكياسة والخُبر

وحرقة قلبي هيجتني لنشرها
كما فعلت نار المجامر بالعطر
سطرتُ ولولا غض عيني على البكا
لرقرق دمعي حسرة فمحا سطري
أحدثُ أخباراً يضيق بها صدري
وأحمل آصاراً ينوء بها ظهري

غربة الإنسان :

نجد الغربة عند الشاعرين تفيض لوعة ، وتفجعا على الوطن ، وحنينا جارفا إلى المعاهد الماضية ، والزمن المولي ، حتى غدت الغربة محور القصيدتين .

وهكذا نرى الشيرازي والرندي يستفيضان في محور الغربة ، ويكرران نفس اللوعة ويرددان نفس المنظومة بحثا عن الخلاص .

وإذا اتجهنا بتركيزنا قليلا نحو الأندلس ، فسنرى أن الأحداث الخارجية ،والاضطرابات الداخلية ، لم تكن الباعث الوحيد على ظهور الغربة في شعر الرندي ، فهناك عوامل أخرى ، نفسية ، خاصة بالمجمع الأندلسي ، فهو مجتمع ميال بطبعه إلى الألفة ، يكره الابتعاد عن وطنه ، وترك أهله ، وأي تغيير في نمط حياته ، يعرضه لهزة نفسية وقلق مستمر . وذكر المقري بعض الثوابت العقلية ، وطباع المجتمع الأندلسي ، منها ذلك الميل إلى تقديس الماضي والأسلاف ، والسعي إلى المحافظة على المتوارث المعهود .

ويمكننا أن نقول : إنما هي مشاعر مشتركة مع أهل بغداد ، الذين ذاقوا كما ذاق أهل الأندلس من ضياع ، وغربة ، فالأحداث وما ترتب عليها متشابهة ، والإنسان هو الإنسان في إحساسه ، عند فقده عزيزا ، فما بالك بفقد الوطن !

وليس بالضرورة أن يحس الإنسان بغربته وهو بعيد عن وطنه ، ولكن قد يحس بها وهو في ربوع وطنه ، وبين أهله ، وما آل إليه الحال في بغداد والأندلس بعد سقوطهما ، وكيف أن الأحوال قد تبدلت بدخول التتار في بغداد والأسبان في الأندلس ، أدت إلى غربة المواطن في وطنه .وتلك فاجعة كبرى أن يحس الإنسان بغربة وهو في وطنه ، وبين أهله ، وعلى أرضه .وبين الشاعران هذه الغربة في أبيات كثيرة ، فنجد الرندي يقول فيها :

لكل شيء إذا ما تم نُقْصَانُ

فلا يُغَرُّ بطيب العيش إنسانُ
أين الملوك ذووالتيجان من يمن
وأين منهم أكاليل وتيجان
وأين ما شاده شدَّاد في إرم
وأين ماساسه في الفرس سَاسَانُ
وأين ما حازه قارون من ذهب
وأين عاد وشداد وقحطان
أتى على الكل أمر لا مرد له
حتى قضوا فكأن القوم ما كانوا
يا من لذلة قوم بعد عزهم
أحَالَ حالَهم كُفْرٌ وطغيان
بالأمس كانوا ملوكا في منازلهم
واليومَ هم في بلاد الكفرعبْدَانُ
يا رب أم وطفل حيل بينهما
كما تَفَرَّقُ أرواح وأبدان

يوضح الرندي من خلال أبياته على أن الغربة لم تقتصر على الزمان والمكان الأندلسي بل توجه وجهة أخرى ، بل أوشك الوجود الأندلسي أن يصبح في خبر كان .

ويؤكد هذا المعنى بذكره الأمم السابقة الفانية ، التي كان ما كان لها من عز وشهرة ، فأين ذهب أولئك ؟ وأين ما صنعوه وعمروه ، وأين ما كنزوه من ذهب ، جاء ومضى على الجميع كما مضى علينا أمر مقدر لا مرد له، وبذلك فلا تغتر أيها الإنسان ، لأن لكل شيء نهاية .

ونلاحظ أسلوب الرندي المتنوع ما بين نداء واستفهام . وذلك ليبين أن الإنسان الغريب يكون مشحونا بالتوتر ، ومن ثم يكون كثير الحركة والتعامل مع تلك الأساليب، فالنداء والاستفهام هنا يتجاوز المعنى النحوي واللغوي العادي إلى معنى ثالث أو رابع ، إلى الدلالة المشحونة بالانفعال ، والإحساس الإنساني .(٢)

و الشاعر يؤكد هذه الغربة بذكره الروح وكيف أنها اغتربت بخروجها من الجسد ، فالإنسان اغترب كذلك بخروجه من وطنه أو بتصيير وطنه وطناً لغيره ، فالغربة غربة روح، كانت متعلقة وملتصقة بأرض تغيرت ملامحها وألوانها وهويتها رغماً عنها إلى ألوان باهتة وملامح قبيحة وهوية مضطربة ، فكيف يتأتى لهذه الروح أن تنعم بصورة جديدة لم تألفها وبجسد جديد لايسعه !

ويبين الشيرازي نفس الغربة في قصيدته :

لَزِمتُ اصطِباراً حَيثُ كُنتُ مُفارِقاً
وَهذا فِراقٌ لا يُعالَجُ بِالصَّبرِ
لأنَّ هَلاكَ النَفسِ عِندَ أُولي النُهَى
أَحَبُّ لَهم مِن عَيشِ مُنقَبِضِ الصَدرِ
أيا ناصحي بالصَّبرِ دَعني وَزَفرَتي
أَمَوضِعُ صَبرٍ وَالكُبُودُ عَلَى الجَمرِ ؟.
تَهَدَّمَ شخصي مِن مُداوَمَةِ البُكَى
وَيَنهدمِ الجُرفُ الدَّوارِسُ بِالمَخرِ
فجرتُ مِياهَ العَينِ فازدَدتُ حُرقَةً
كَما احتَرَقَت جوفُ الدَّماميلِ بِالفَجرِ
ولا تَسأَلنّي كَيفَ قَلبُكَ وَالنَّوَى
جِراحَةُ صَدري لا تَبَيَّنُ بِالسَّبرِ
مَحاجِرَ ثَكلَى بالدُّموعِ كَريمَةً
وَإِن بَخِلَت عَينُ الغَمائِمِ بالقَطرِ
إذا كانَ للإنسانِ عِندَ خُطوبِهِ
يَزولُ الغِنَى ، طوبى لِمَلكَةِ الفَقرِ
إذا شَمِتَ الواشي بِمَوتي فَقُل لَهُ
رُوَيدَكَ ما عاشَ امرؤٌ أَبَدَ الدَهرِ
جَرَت عَبَراتي فَوقَ خَدّي كَآبَةً
فَأَنشَأتُ هذا في قَضيَّةِ ما يَجري
وَحُرقَةُ قَلبي هَيّجَتني لِنَشرِها
كما فَعَلَت نارُ المَجامِرِ بالعِطرِ
سَطَرتُ وَلولا غَضُّ عَيني عَلَى البُكا
لَرَقرَقَ دَمعي حَسرةً فَمَحا سَطري
وَلا سَّيما قَلبي رَقيقٌ زُجاجُه
ومُمتَنِعٌ وَصلُ الزُجاجِ لَدَى الكَسرِ
وَرَبُّ الحجَى لا يَطمَئِنُّ بعيشَة
فَلا خَيرَ في وَصلٍ يُرَدَّفُ بالهَجرِ

غربة الإنسان عند الشيرازي واضحة ومؤلمة قدر ألم المصيبة ، فقد تمنى ألا يعيش حتى يرى بعينه خراب بغداد ، ويحدث ما حدث له من ألم وحسرة . فقد فاضت مشاعره بكل الأحاسيس والمشاعر الإنسانية . فقد أجبر الإنسان على الفراق ، والفراق والغربة متلازمان شعوريا ، فيشعر الإنسان بغربته بمجرد الفراق والبعد عن الحبيب ، وإن كان الفراق في مساحة جغرافية واحدة .

ويستفيض الشاعر في ألفظ البكاء والحرقة فهو في ديباجته حزين يتأسف ويتلهف على ما آل إليه حال الإنسان ، إنها الكآبة والحرقة هما اللتان دفعتاه إلى نظم هذه الأبيات وتصوير المعاناة ، وكذا إحساسه المرهف ،فقد احترق قلبه فهيجه لنشرها واكتأبت نفسه لما جرى فحركته لإنشائها .أي أنه أراد مشاركة أحبائه من علماء تلك الديار وأدبائها ومشاطرتهم أحزانهم وآلامهم ، فعبر عن تباريح ما ألم به من مصاب جلل ، وأخذ يستمر في التعبير عما يلج في خاطره ، وما يحس به حين شبه قلبه

بزجاج رقيق ، ولا يمكن التئام الجرح وتجبير الصدع بعد انكسار الكأس وتحطم القلب . (١) وهذا الانكسار غربة ملازمة له طوال عمره ، ولكن لابد من التصبر والسلوان ، وهو ما يلجأ إليه الإنسان المصاب ليخفف عن نفسه أو غيره ، وهو ما لجا إليه شاعرنا وما اعتاد عليه في شعره ، لينطلق على سجيته في شدة الولوع ببذل النصح وقول الحكمة وإيراد الموعظة التي تزع عن الشر وتهدي إلى الخير .

الهوامش

(١) الغربة في الشعر الجاهلي عبدالرزاق الخشروم /
منشورات اتحاد الكتاب العرب ص: ١١و ١٢و١٣و١٤ و١٥

(٢) الغربة والحنين في الشعر الأندلسي / ص:٤٨ فاطمة طحطح

(٣) المرجع السابق / ص: ٢٥٢

(٤) الغربة والحنين في الشعر الأندلسي ، ص: ٤٩ ، فاطمة طحطح

(٥) الأثر العربي في أدب سعدي الشيرازي ،ص: ١٥٩ / الدكتورة أمل إبراهيم محمد

(٦) الغربة في الشعر الجاهلي . ص: ٢٤١و ٢٤٢و٢٤٣و٢٤٤ عبدالرزاق الخشروم

(٧) الغربة في الشعر الجاهلي /ص: ٢٤٢ عبدالرزاق الخشروم

(٨) الغربة في شعر محمود درويش . ص: ١٤ أحمد محمود جواد مغنية

(٩) السابغة: الدرع ، المشرفي : السيف ، الخرص ، الرمح

(١٠) سيكولوجية التفكير والوعي بالذات /ص: ٢٢٧و٢٢٨ الدكتورة سعاد جبر سعيد

(١١) الأثر العربي في أدب سعدي الشيرازي /ص: ٩٦ ، الدكتورة أمل إبراهيم محمد